# الميتة...

أحببتها حتى غلب علي فيها الذهول، ولماذا أحببتها؟ أغريب شأني إذا لم تر عيناي إلا كائنا واحدا، ولم تحمل نفسي إلا فكرة واحدة، ولم ينطوي قلبي إلا على أمنية واحدة، ولم يتسع فمي إلا لاسم واحد؟ ذلك الاسم الذي يصعد من فمي تكرارا. من أعماق روحي مرارا، كأنه ينبوع متفجر. أقوله وأعيد فيه القول ثانية وثالثة كأنه صلاة أذكرها وأرددها.

لن أقص عليكم ما غشيني في هذا الحب، ومتى كان للحب حكايات متعددة، ورواياته في كل زمان ومكان واحدة. قد رأيتها وأحببتها، وهذا كل ما في روايتي.

قضيت زمنا - ويا حبذا ذلك الزمن - يغمرني عطفها، وتحوطني بذراعيها، وتشبعني نظراتها، ورداؤها وكلماتها. بل فنيت فيها حتى غلب علي الذهول فأصبحت لا أدري : أذلك الليل أو النهار يحيط بي؟ وأنا في قيد الحياة أو في سجل الأموات؟ وهل أنا على أرض غير الأرض؟

والآن ماتت، فكيف سطا عليها الموت؟ لا أدري.. لا أعلم، دخلت علي أمسية ليلة من ليالي الشتاء مبللة الأثواب فنامت، فاستيقظت وهي ترسل السعال ملحة فلزمت سريرها مضطرة.

وبعد ذلك لا أعلم.

الأطباء حشـــدناهم من كل صـــوب. فكانوا يقدمون ويكتبون ويذهبون. والعلاجات تنهال عليها وإزاءها امرأة ترعاها. يدها حارة الملمس. وجبينها متوقد. ونضرتها ساطعة، لكنها كئيبة.

أكلمها فتخاطبني، ولكن ماذا قلنا؟ لا أعلم.. قد نســيت كل شــيء.. كل شــيء. إنها قضــت ولا أزال أذكر تنهداتها الخفيفة وأنّتها الضعيفة.

وقد صاح من خولها (آه) ففهمت أن الأمر انقضى.

لم أعد أعلم شيئاً..

لمحت كاهنا يخاطبني بهذه الكلمة : أمعشــوقتك؟ فخيل إلي أنه ينال منها، - وهو بعد موتها - يجب عليه ألا يعرف شــيئاً من هذا فنفيته من دارها وطلبت غيره، فخف إلى كاهن طيب السريرة.

رقيق النفس، حدثني عنها فغلب علي البكاء.

أمسيت لا أعرف شيئًا، ولكني أذكر الأكفان والناووس الذي ووريت فيه إلى الأبد.

نزلت في التراب، وجاء معها بعض صــواحبها، وأخيرا انطلقت وطفت في الســبل شــاردا، وعدت أدراجي، وفي الغد الباكر حملت نفسي على الرحيل

وبالأمس دخلت باريس...

ومذ وقع ناظري على غرفتي.. غرفتنا وسـريرنا ومتاعنا. وكل ما يخلفه الميت وراءه، شـعرت بان أنفاسي تضيق، وبان كآبة تتمدد في إحناء نفســي فتزيد صــدري حرجا. وتبعثني على إلقاء نفســي من النافذة... لم اســتطع البقاء طويلا في هذه الغرفة التي تتراءى لي فيها

محبوبتي، فأســـرعت عازما على الخروج فوقع ناظري على تلك المرآة المصقولة التي كانت تقف إزاءها ناضرة إلى وجهها وجسدها كل يوم، تتقن زينتها تجاه هذه المرآة التي كان رســـمها ينعكس فيها، ولا يزال يتراءى على صـــفحتها فأدركتني رعشـــة عميقة، وعيني خلال ذلك لا تبرح المرآة العميقة الفارغة التي احتوتها - قبل اليوم - فخيل إلي أنني احب هذه المرآة فلمستها فإذا هي باردة...

ولكن الذكرى، الذكرى!! المرآة الملتهبة المعذبة.

إلا انهم ســـعداء، من تشـــبه قلوبهم هذه المرآة ترتســـم عليها الضلال ثم تمحى. وتنسى كل ما ارتسم عليها وارتسم فيها.

برحت مكاني وأنا غير مختار. ولا أعلم أية وجهة اســـلك!؟ فدخلت المقبرة فألفيت ضريحها المنفرد يشرف عليه صليب رخامي نقش تحته

(إنها أحبت وكانت محبوبة ثم ماتت...)

إنها تحت هذا الضـــريح قد عبث فيها الفســـاد! مكثت هنالك طويلا خاشـــع الرأس حتى واتى المســـاء، ولكن خطرة غريبة صـــعدت من نفسي هي خطرة عاشق يائس تحدثني وترغمني على قضاء الليل بجانبها ذاكرًا باكيًا، ولكن الناس ســـينظرون إلي وســـيطردوني فما عسى

اصـــنع؟ نهضـــت وأبديت لمن يراني إنني ضـــال بين القبور، فســـرت وأمعنت في الســـير، ولكن ما أضـــأل مدينة الموتى إزاء غيرها من مدن أهل الحياة، والموتى ينيف عددهم على عدد الأحياء.

يتخذ القصور الشامخة والدور الباسقة والسبل الفسيحة أبناء النور، وشاربو الينابيع، وراشفو ابنة الأعناب، وآكلو سنابل الحقول، أما الموتى الذين تحدروا إلى أعماق الثرى وما زالوا ينحدرون. أولئك لا ينالون شيئًا... رقعة من الثري تضمهم والنسيان يطوي أسماءهم ووداعًا.

في زاوية من زوايا المقبرة الآهلة بسكانها وقع ناظري على المقبرة العتيقة التي اختلط رفات أصحابها بالتراب، وأتى على صلبانهم الهلاك. وغدًا سيبدل الأحياء بالنازلين القدماء، نازلين محدثين.

كان يغشى تلك المقبرة ورود منتشرة، وأوراق سوداء، كأنها حديقة كئيبة سامخة تغذيها لحوم الموتى.

آويت إلى جذع شجرة تواريت به عن الناس. ولبثت مرتقبا قابضًا على الجذع كما يقبض الغريق على بقية من بقايا زورقه المحطم حتى مد الظلام رواقه، فغادرت مكاني وطفقت أطوف متمهلا بين اللحود

ضللت كثيرًا وأنا أتلمس قبرها. فكنت أسرى باسطًا يدي. وفاتحًا عيني، وواثبًا بين القبور على غير هدى، فكم قبور لمحت، وكم رسوم وقفت عليها كأعمى يود أن يهتدي إلى سبيله فلمست حجارة وصلبانًا. وأكاليل ذوت أزاهيرها، وأكاليل من زجاج. وتلوت أسماء كثيرة بيدي ولكنني لم أجدها.

لا قمر في السماء يزيح هذه الظلمة الداجية.! وياله من ليل بعث في نفسي الهول. أغشى الطريق تغمر جانبيها القبور. القبور عن يميني والقبور عن شمالي. والقبور أمامي ووراءي. أعياني السير

فاستويت على ضريح فسمعت خفقان قلبي وسمعت شيئًا غير خفقانه.

ماذا اسمع؟ أهذه وساوس تعيث في رأسي؟! وهذه أسماء تتصاعد من الأرض الطافحة بأشلاء بني الإنسان؟

كم مضى علي من الزمن وأنا لابث في مكاني؟ لا أعلم : ولكن الخوف قابض على قلبي بكلتا يديه لا يبرحه. همت باكيا أصيح، وأوشكت أن أقضي نحبي.

فجأة شعرت بأن لوح الضريح الذي اتخذته مقعدًا لي بدأ يتحرك كأن شيئًا تحته يزيحه، فبعدت عنه مذعورًا وإذا باللوح يمشي... وصاحبه ينتصب بهيكله العظمي. أزاح بظهره المقوس لوح الضريح فألقاه على الأرض

فتلوت على اللوح برغم حلوكة الليل : (هاهنا يرقد (جاك اوليفان) المتوفى في الخمسين من عمره. كان بارًا بأبويه : وكان صالحا شريفًا. ومات تحت كنف الله).

رأيت الميت يحدق في هذه الكلمات ثم جاء بحجر مسنون يمحوها حتى لم يبق لها من أثر. ثم أخذ ينظر مكانها وتناول عظمة من عظامه وسطّر عليها بأحرف بارزة (هاهنا يرقد جاك اوليفان المتوفى في الخمسين من عمره. قد عجّل موت والديه لعقوقه، وأضنى امرأته. وعذب أولاده وخدع جيرانه وسرق ما استطاع ومات فقيرًا).

أتم الميت تسطيرها وظل يتأمل فيها، وغادرت مكاني فإذا القبور جميعها متفتحة، وسكانها جميعًا بعثوا من مراقدهم،

ومحوا الصفات الكاذبة التي سطرها أهلوهم على لوحات قبورهم، ونقشوا مكانها حقائقهم المجردة، فوجدت أن جميع هؤلاء الآباء الصالحين والزوجات الأمينات، والأبناء الطاهرين، والغواني العفيفات، وأن هؤلاء التجار المستقيمين، منهم العاق والبغيض، واللئيم والمرائي، والكاذب والحاسد والنمام، ومنهم السارق والخادع، والمرتكب كثيرًا من الآثام. رايتهم جميعًا منكبين على منازلهم يسطرون حقيقة أنفسهم التي يجهلها أو يكاد يجعلها أبناء الحياة.

شعرت - إذ ذاك - بان محبوبتي خطبها خطبهم، فجعلت إليها نافضا عني الخوف، ومن حولي القبور المفتوحة. والجثث المنشورة والهياكل المنتصبة. عرفتها إذ لمحتها، ولم أتوسم وجهها المتصبب عرقا. وعرفت القبر الذي كانت هذه الجملة مسطورة عليه (إنها أحبت. وكانت محبوبة ثم ماتت).

تلوت هذه الجملة الثانية (خرجت يومًا لتخون حبيبها فأصابها برد أودي بحياتها)

ويبدو لي أنهم عثروا بي راقدا عند شروق الشمس على أحد القبور.